

الباب الرابع

خصائص الفخر والحكمة في معلقة طرفة بن العبد

الفصل الأول

من حيث المعنى والخيال والعاطفة

وبعد أن وَضَّحَتُ الباحثةُ بَحْثاً من البحوثِ فِي الأبوابِ السابقة ستبحث في هذا الباب فِي التحاليل من نصوص الأبيات الشعرية لطرفة ابن العبد. وتُخَصُّ هذه تحليلها على معناها وخيالها و عاطفتها. من غرضيها، وهما شعر الفخر و شعر الحكمة.

فالأوَّلُ هو شعر الفخر، بُنِيَ هذا الشَّعْرُ عَلَى أَنَّ يَفْتَحِرَ الشَّاعِرُ إِلَى نفسه أو قومه أو عشيرته مِنَ الفضائلِ والشَّجَاعَةِ وَالْكَرَمِ وَالْمَهَارَةِ وَغَيْرِهَا، وَكَانَ الْمَثَالُ مِنْ شعره هو:

(1) إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا : مَنْ فَتَى؟ خَلْتُ أَنَّنِي

عُنَيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَدَّدْ

(2) وَكَسْتُ بِحَلَالِ التَّلَاعِ مَخَافَةً

وَلَكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ الْقَوْمُ أَرْفِدْ

(3) فَإِنْ تَبَغْنِي فِي حَلْقَةِ الْقَوْمِ تَلْقُنِي

وإن تلمسني في الحوا نيت تصطد

- (4) وإن يلتق الحيُّ الجميع تلاقِي
إلى ذرورة البيت الشريف المصمّد
- (5) وما زال تشرابي الخمورَ ولذتي
وبيعي وإنفاقي طريفى و متلدى
- (6) إلى أن تحامتنى العشيرة كلّها
وأفردت إفراد البعير المعبد⁵⁴
- (7) ولقد تعلم بكرُّ أننا
فاضلوا الرأى وفى الرّوع وقُرّ
- (8) يكشفون الضرّ عن ذى ضرهم
ويُبرون على الآبى المبر
- (9) فضل أحلامهم عن جارهم
رُحْبُ الأذرع بالخير أمر
- (10) ذلُق فى غارة مسفوحة
ولدى البأس حماة ما نفرّ
- (11) نُمسك الخيلَ على مكروها
حين لا يُمسكها إلا الصبر⁵⁵

⁵⁴ محمد احمد المرشدلى، الأدب والنصوص والبلاغة (كارا لمعارف بمكة)، ص.62

فَالثَّانِي هُوَ شَعْرُ الْحِكْمَةِ، بُنِيَ هَذَا الشَّعْرُ عَلَى قَوْلِ نَاتِجٍ عَنِ تَجْرِبَةٍ
وَحَبْرَةٍ وَدِرَايَةٍ بِالْأُمُورِ وَمَجْرِيَاتِهَا وَكَانَ الْمِثَالُ مِنْ شَعْرِهِ فِيمَا يَلِي:

- (12) وَظَلَمْتُ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مُضَاضَةً
عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقَعِ الْحُسَامِ الْمَهْنَدِ
- (13) أَرَى الْمَوْتَ أَعْدَادَ النُّفُوسِ وَلَا أَرَى
بَعِيداً غَدًا، مَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ غَدٍ
- (14) سَتَبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا
وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ
- (15) أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَمُّ الْكِرَامَ وَيَصْطَفِي
عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ
- (16) أَرَى الْعَيْشَ كَنْزًا نَاقِصًا كُلَّ لَيْلَةٍ
وَمَا تَنْقُصُ الْأَيَّامُ وَالذَّهْرُ يَنْفَدُ
- (17) لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى
لِكَالطَّوْلِ الْمُرْخِي وَثِنْيَاهُ بِالْيَدِ
- (18) مَتَى مَا يَشَأْ يَوْمًا يَقْدُهُ لِحَقِّهِ
وَمَنْ يَكُ فِي حَبْلِ الْمَنِيَّةِ يَنْقَدُ⁵⁶

⁵⁶ عمر فروخ، المنهاج الجديد في الأدب العربي (بيروت: دار العلم للملايين)، ص. 45-46

قبل ان تحلل الباحثة هذه الأبيات الشعرية فمن المستحسن إيراد شرح الشعر. الفخر هو الاعتزاز بالفضائل يتحلى بها الشاعر أو تتحلى بها قبيلته.

بناءً على هذا الشعر قد نرى أن طرفة ابن العبد يفخر بنفسه وما كان لديه إلا الفضائل النفسية التي أوردتها إلى رجل آخر. مما يتصف به طرفة من الفخر هو لفظ "عنيت فلم أكسل ولم أتبلد"، ويين هذا اللفظ بالتأكيد عن نفسه ليس كسلانا ولا تردداً وهو الفتى الصالح السائد بمصالح الأمور. وأضاف أنه تسوده الفخر النفسي كما في كلمة "ولكن متى يسترفد القوم أرفد" ظهر لنا ان طرفة قد استعدت إعانة لغيره أى قوم استعانوا به إما كان في قري الأضياف وإما في قتال الأعداء.⁵⁷

كما رأته الباحثة من أبيات هذا الشعر قد وردت وتشتمل على بساطة المعانى حتى يفهم القارئ بها، وهي تعبر عن قصد الشاعر في سهولة بحيث يعرف السامع ما يريد الشاعر منذ سماعه للبيت أو الأبيات وتعبر عن أشياء محسوسة مثل في لفظ "وما زال تشرابي الخمر ولذتي" ورد هذا البيت إلى متاع الشاعر ولذته من شرب الخمر، وهو في دائمة اللهو والإسراف.⁵⁸

ومن أوضح المعانى من هذا الشعر هو لفظ "فإن تبغني في حلقة القوم تلقني" أى بمعنى ولما أتى رجل إلى في مكان يلقه بسبب اشتهاؤه

⁵⁷ أبي عبد الله الحسين بن احمد بن الحسين الزوزني، شرح المعلقات السبع (بيروت: عالم الكتب 1990 م)، ص. 60

⁵⁸ محمد احمد المرشدلي، الأدب والنصوص والبلاغة (كارا لمعارف بمكة)، ص. 61

فَضَائِلُهُ حَتَّى يَعْرِفُهُ مَعْرِفَةً بِالسَّهُولَةِ، وَلَا فِي هَذَا الْمَعْنَى الشَّعْرِيَّ تَعْقِيدٌ وَلَا تَكَلُّفٌ، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى أَنَّ طَرَفَةَ دَائِمًا يُعْبَرُ عَنْ أَشْيَاءٍ فَاخِرَةٍ مُتَعَلِّقَةٍ بِنَفْسِهِ.
 وَكَانَ الْخِيَالُ فِي هَذَا الشَّعْرِ لَيْسَ قَوِيًّا وَبَارِزًا مِنْ أَلْفَاظِهِ بِحَيْثُ
 مَعْظَمُ تَرَائِبِ الشَّعْرِ تَتَكَوَّنُ مِنَ اللُّغَاتِ السَّاذِجَةِ وَتَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مَعَانَ حَقِيقِيَّةٍ
 وَاضِحَةٍ، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى نَقُولُ أَنَّ لَيْسَ فِي هَذَا الشَّعْرِ الْخِيَالُ بِأَنَّهُ يُصَوِّرُ مَا
 كَانَ مَحْسُوسًا وَ يَتَلَذَّذُ لِلْأَلْعَابِ وَاللَّهُوِ.

أما العاطفة فهي يمتلك بها الشاعر بعمله الأدبي، احتوى هذا الشعر على ما خاطر به طرفة عن أشياء متعددة حوله مثل حال قبيلته عند لقائه في حلقة ورغبته في شرب الخمر، وقد ظهر لنا أنه يتصف به بكلمات عميقة شاملة على عواطفه.

أن العاطفة السائدة في معظم المعلقة هي عاطفة الألم من ظلم الأقارب وذلك لأن أعمامه على ما يبدو ظلموه وإخوته و والدته الأرملة، ولم يوفوهم
 59
 ميراثهم.

الفصل الثاني

من حيث اللفظ والأسلوب

احتوى هذا الباب على تَحَالِيلِ الأبيات الشعرية لطرفة بن العبد من ناحية اللفظ والأسلوب وقبل ان تبحث الباحثة فيها أخذت تلاحظ لمحة عن اللفظ و الأسلوب.

أن ألفاظ الشعر الجاهليّ قوية صلبة في مواقف الحروب والحماسة والمدح والفخر ولينة في مواقف الغزل. وألفاظ الشعر مفهومة في معظمها ومع ذلك تشتمل على الغريب والغريبُ يكثر في الرجز،.....
 أما ألفاظ الشعر الغريب فيه فأقلّ، ويغلب على الفاظ الجاهلية أداء المعنى الحقيقي، أما الألفاظ التي تعبّر عن المعنى المجازي فهي قليلة.⁶⁰
 وجزالة اللفظ توافر له إذا لم يكن غريباً ولا سوقياً مبتذلاً، ومعياره أن يكون بحيث تعرفه العامة إذا سمعته، ولا تستعمله في محاوراتها. والأمثلة كثيرة تقتصر منها على قول الحطيئة.⁶¹

أن ألفاظ لطرفة في مجموعها خشنة، وسبب هذا طبيعة الموضوعات التي طرقها من وصف للناقة وفخر وحماسة. و الألفاظ القوية الجزالة، والمعاني الجليلة الرائعة والحكمة العميقة الصادقة. ولهذا كان لمعلقته شهرة عظيمة وتمثل الناس كثيراً بأبياتها.⁶²

⁶⁰ عبد العزيز بن محمد الفيصل، الأدب العربي وتاريخه، (مملكة العربية السعودية) وزارة التعليم العالي، 1402 هـ. ص. 72-73

⁶¹ محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، (الفتحة- القاهرة) مجهول السنة، ص. 168

⁶² حسن شاذلي فرهود وإخوانه، الأدب نصوصه وتاريخه، (مملكة العربية السعودية) الطبعة الأولى 1975-1976 هـ. ص. 43

أما أسلوب طرفة في معلقة فليس بالأسلوب المنطقي في ترتيب الافكار.⁶³ والأسلوب ثلاثة أنواع فهي:

- 1) الأسلوب العلمي: وهو أهد الأساليب، وأكثرها احتياجاً إلى المنطق السليم والفكر المستقيم، وبعدها عن الخيال الشعري لأنه يُخاطب العقل ويناجي الفكر ويشرح الحقائق العلمية التي لا تخلو من غموض وخفاء، وأظهر ميزات هذا الأسلوب الوضوح ولا بد أن يبدو فيه أثر القوة والجمال وقوته في سطوع بيانه وحصانة حججه، وجماله في سهولة عباراته، وسلامة الذوق في اختيار كلماته وحسن تقريره المعنى في الأفهام من أقرب وجوه الكلام.
- 2) والأسلوب الأدبي: هو الجمال أبرز صفاته، وأظهر مُميّزاته ومنشأ جماله ما فيه من خيال رائع، وتصوير دقيق، وتلمُّس لوجوه الشبه البعيدة بين الأشياء، وإلباس المعنوي ثوب المحسوس وإظهار المحسوس في صورة المعنوي.
- 3) والأسلوب الخطابي: هو تبرزُ قوة المعالي والألفاظ، وقوةُ الحجة والبرهان وقوة العقل الخصب وهنا يتحدث الخطيب إلى إرادة سامعيه لإثارة عزمهم واستنهاض هممهم، ولجمال هذا الأسلوب ووضوحه شأن كبير في تأثيره ووصوله إلى قرارة النفوس، ومما يزيد في تأثير هذا الأسلوب منزلة الخطيب في نفوس سامعيه وقوة عارضته، وسطوع حجته ونبرات صوته وحسن إلقائه ومحكم إشارته.

⁶³ حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العرب، (جميع الحقوق محفوظة للمطبعة البولسية) ص. 109

ولكن في هذا البحث تبحث الباحثة الأسلوب الأدبي، ورأى عليّ الجارمي أيضا أن الناشئين يظنون في صناعة الأدب أنه كلها كثير المّجاز وكثرت التشبيهات والأخيلة في هذا الأسلوب أي الأسلوب الأدبي زاد حسنه.⁶⁴

والأسلوب هو طريقة التعبير، كقول مهدي علام في كتابه (النقد و البلاغة):

ويستعمل الأسلوب في النقد الأدبي بمعنى طريقة التعبير و مذهبه، ومعني بالمذهب في التعبير أن الكتابات تختلف فيما بينها بحسب موضوعاتها وما يرمي إليه الكتاب من غرضها.⁶⁵

أما الاساليب البلاغية فمثل:

أما الاستعارة المكنية الأولى المذكور في البيت الثالث من معلقة طرفة بن العبد فهي:

فإن تبغني في حلقة القوم تلقني

وإن تلمسني في الحوائت تصطد

⁶⁴ علي الجارمي و مصطفى أمين، بلاغة الواضحة، (مصر)، ص. 15-16

⁶⁵ وهدى علام، النقد والبلاغة، (مكتبة مصر: دارمكد للطباعة)، ص. 2

نظرت الباحثة في البيت الثالث إلى الاستعارة المكنية في قوله: (تصطد)
فقد شبه نفسه بالطائر و حذف المشبه به و جاء بصفة من صفاته.

أما الاستعارة المكنية الثالثة المذكورة في البيت الخامس عشر من معلقة
طرفة بن العبد فهي:

أرى الموت يعتأم الكرام ويصطفى
عقيلة مأل الفاحش المتشدد

نظرت الباحثة في البيت الخامس عشر إلى الاستعارة المكنية في قوله:
يعتأم و يُصْطَفَى ، فقد شبه الموت بالانسان الذي فني ويصطفى على ما
يشاء، وحذف المشبه به وجاء بصفة من صفاته.

أما التشبيه البليغ المذكور في البيت السادس عشر من معلقة طرفة
بن العبد فهي:

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة
وما تنقص الأيام والدهر ينفد

كان في هذا البيت السادس عشر التشبيه البليغ في قوله: أرى العيش
كنزاً ، حذف منه الأداة ووجه الشبه .

أما التشبيه مرسل المذكور في البيت السابع عشر من معلقة طرفة

بن العبد فهي:

لَعْمُرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أخطأَ الْفَتَى

لَكَالطَّوْلِ الْمُرْخَى وَثِيَاهُ بِالْيَدِ

وَوُجِدَ فِي الْبَيْتِ السَّابِعِ عَشَرَ تَشْبِيهًُ مُرْسَلٌ فِي قَوْلِهِ:

لَمَّا ذُكِرَتْ فِيهِ أَدَاةُ التَّشْبِيهِ وَهِيَ "الْكَاف" وَالْمَشْبَهُ بِهِ وَهُوَ لَطَوْلُ الْمُرْخَى أَمَا
مَشْبَهُ "مَوْتَ".